المحاضرة السادسة: الفكر الخلدوني وموقفه من الفلسفة

أهداف التعليم

- التعرف على خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية
- التعرف على مبادئ الفلسفة الإسلامية
- التعرف على موقف إبن خلدون من الفلسفة

يعتبر إبن خلدون من بين الشخصيات القوية في الثقافة العربية الإسلامية وقت تدهور أوضاعها وإنحطاطها ، فهو يعتبر بشكل عام مؤرخا وسوسيولوجيا وفيلسوفا . غير أنه بخصوص موقفه من الفلسفة لا نجده يقدم موقفا "على طبق من ذهب ، ما دام أن صاحب المقدمة لم يشأ التشطيب على الفلسفة بجرة قلم ، ورفضها بإطلاق ، ومعاداتها جملة وتفصيلا من جهة ، كما أنه لم يشأ إحتضانها بحرارة وقبولها بإطلاق ومن دون مواربة أو غمغمة من جهة أخرى".

في الفصل الرابع والعشرون من المقدمة الذي عنوانه " في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها " يفتتح قوله عن الفلاسفة فيقول:" وذلك أن قوما من عقلاء النّوع الإنساني زعموا أن الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فإنها بعض من مدارك العقل ، وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف ، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشمّروا له وحوّموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل وسمّوه بالمنطق" . وبعد هذا الوصف التفصيلي لمذهب الفلاسفة ومناهجهم في معالجة القضايا المختلفة ، بيّن أن زعيم هؤلاء وإمامهم هو أرسطو المقدوني معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله صناعته "مهذبة وهو أول من رتّب قانونها وإستوفى مسائلها وأحسن بسطها، ولقد أحسن في ذلك القانون ما شاء لو تكفل له بقصدهم في الإلهيات". وحسب إبن خلدون قد أخذ بهذه المذاهب الكثير من

المسلمين وإتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا في القليل ، فلما ترجمت كتب المتقدمين من الخلفاء من بني العباس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي " تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أذلّه الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها وإختلفوا في مسائل من تعاريفها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابي في المائة الرابعة لعهد سيف الدولة ، وأبو علي بن سينا في المائة الخامسة لعهد نظام الملك من بني بويه بأصبهان وغيرهما". ونتيجة لهذا يحكم إبن خلدون على هؤلاء بالتقليد والزيغ وإختيارهم طريق الظلال بدل طريق الهدى وفي هذا يقول :" وأعلم أن هذا الرأي الذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه".

أما البراهين على الموجودات عند المشتغلين بالفلسفة وإعتبار المنطق معيار لها هي في نظره قاصرة وغير وافية بالغرض ، ووجه القصور فيها أن " المطابقة بين تلك النتائج الذهنية التي تستخرج بالحدود والأقيسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لأن تلك أحكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بموادها". وهذا ما دفعه إلى التأكيد على أن مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معيشتنا ووجب على المسلم تركها.

لقد عارض إبن خلدون الطّرح الذي قدّمه الفلاسفة لمشكلة السّعادة، وأكّد على تعذّر إدراكها بتلك الطريقة التي ذكرها هؤلاء الفلاسفة وهي طريقة التأمل والنظر الفكري وهي قد تبعدنا منها أكثر من أن تقربنا منها. لذلك فإن السعادة في إدراك الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين قول مزيّف ومردود عليهم .إن الإنسان مركب من قسمين : أحدهما جسماني والآخر روحاني متداخل معه وممتزج به ، والعنصر المدرك واحد وهو العنصر الروحاني الذي يدرك مرّة مدارك روحانية ومرّة أخرى مدارك جسمانية . غير أن المدارك الروحانية تتم دون وسيط على عكس المدارك الجسمانية التي تتم بواسطة آلات الجسم {الدماغ والحواس} . فالنفس " الروحانية إذا شعرت بإدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها إبتهاج ولذّة لا يعبّر عنهما ، وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حساب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة".وقد أعطى إبن خلدون قيمة كبيرة من للذة للنّفس الرّوحانية والتي تتم بدون وسائط وتكون مركّزة ومكثّفة ويستحيا على اللسان

التعبير عليها ووصفها بسهولة . ولهذا السبب نجد إبن خلدون يذكر المتصوفة في قوله " والمتصوفة كثيرا ما يعنون بحصول هذا الإدراك النفس بحصول هذه البهجة ، فيحاولون بالرياضة إماتة القوى ومداركها ، حتى الفكر من الدماغ ليحصل للنفس إدراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية يحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنهما ، وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلّم لهم وهو مع ذلك غير واف بمقصودهم ". وهذا الطريق الموصل للذة لا يتم بالنظر ولا بالعمل ، بل بكشف حجاب النفس والتخلي عن المدارك الجسمانية بأكملها ، وهذا ما يفسر إختيار المتصوفة لهذا الطريق الذي يقوم على الرياضة وإماتة القوى الدماغية والجسمانية ، عوض الطريق النظري الذي يقوم على البراهين والأدلة العقلية. يؤكد إبن خلدون على هذا الإختيار بقوله :" والذي يحصل من جميع ما قررناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني إذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الإدراك في الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بعام الإدراك في الموجودات كلها ، إذ لم تنحصر، وأنه يبتهج بذلك النحو من الإدراك إبتهاجا شديدا كما يبتهجالصبي بمداركه الحسية في أول نشوئه".

من هنا يؤكد إبن خلدون فساد وبطلان براهين و إدعاءات الفلاسفة بشكل إجمالي قائلا : " فهذا العلم كما رأيته غير واف بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع و ظواهرها وليس له في ما علمنا إلا ثمرة واحدة وهي شحن الذهن في ترتيب الأدلة والحجج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين ، وذلك أن نظم المقاييس وتركيبها على وجه الإحكام والإتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية وهو كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها ، فيستولي الناظر فيها بكثرةإستعمال البراهين بشروطها على ملكة الإتقان والصواب في الحجاج والإستدلالات ، لأنها وإن كانت غير وافية بمقصودهم فهي أصح ما علمناه من قوانين الأنظار".

رغم هذا الموقف السلبي الذي إتخذهإبن خلدون من الفلسفة ، إلا أنه طالب بضرورة الإستفادة من فوائدها وإستخلاص منافعها ، شريطةأن يتسلّحالدّارس لها بسلاح الشّرع وأن يكون جهده " متحرّزا من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها بعد الإمتلاء من الشرعيات والإطلاع على التفسير والفقه ، ولا يكبّنّ أحد عليها وهو خلوّ من علوم الملّة ، فقلّ أن يسلم لذلك من معاطبها". وهاهنا يقترب إبن خلدون من وجهة نظر الغزالي عندما يعتبر الفلسفة طريقا من طرق الكفر والإلحاد إلا لمن كان على قدر كبير من علوم الملة .